خطبة بعنوان:

((الحذر من أمراض القلوب وذكر بعض أسباب صلاحها وفسادها))

✍ لأبي عبدالرحمن موفق الفاضلي العودي حفظه الله

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله-صلى الله عليه وسلم -

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}[آل عمران:102]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النساء:1]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }[الأحزاب:70-71]

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار

أيها الناس عباد الله:

روى الإمام البخاري ومسلم عن النُعْمَان بْن بَشِيرٍ،رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:« إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ».

قال الحافظ ابن رجب: "هذا حديث عظيم وهو أحد الأحاديث التي مدار الدين عليها وقد قيل إنه ثلث العلم أو ربعه ..

ثم ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) كلمة جامعة لصلاح حركات ابن آدم وفسادها وأن ذلك كله بحسب صلاح القلب وفساده ، فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع الجوارح فلم تنبعث إلى طاعة الله واجتناب سخطه فقنعت بـ

الحلال عن الحرام . وإذا فسد القلب فسدت إرادته ، ففسدت الجوارح كلها وانبعث في معاصي الله عز وجل وما فيه سخطه ولم تقنع بالحلال ؛ بل أسرعت في الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق.." اهـ

فإذا كان كذلك فيجب علينا أن نحافظ على قلوبنا ونتعاهدها بين الحين والآخر ونسعى إلى ما فيه صلاحها من فعل الأسباب في صلاحها,ونتجنب ما يفسدها من الأسباب المفسدة لها, وفي هذا المقام نتطرق إلى بعض الأسباب التي تفسد القلب وتمرضه للحذر منها فإن القلب إذا فسد فسدت حياة العبد في الدنيا والآخرة, ونحذر من بعض الأمراض التي قد تعتري القلوب فتفسدها, مع ذكر شيء من أسباب صلاح القلوب.

عباد الله إن ربنا جل في علاه قد توعد أصحاب القلوب القاسية في كتابه الكريم فقال: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}[الزُّمَر:22]

وقال تعالى في الآية التي بعدها: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد}[الزُّمَر:23]

قال المفسر البغوي رحمه الله: قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ قَلْبٍ، وَمَا غَضِبَ اللَّهُ عَزَّ وجلّ على

قومٍ إلّا نزع منهم الرحمة. اهـ

ولست ذاكرا في هذا المقام أسباب الأمراض الحسية للقلوب ,وإنما سأذكر أسباب الأمراض المعنوية لأنها أشد خطرا على القلوب من الأمراض الحسية في الدنيا والآخرة.

ألا وإن من أعظم أسباب قسوة القلوب وفسادها هي الذنوب و المعاصي:

قال تعالى: {كلا ۖ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مّا كانُوا يَكْسِبُون}[المطفّفين:14]

قال المفسر البغوي: غَلَبَتْ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْمَعَاصِي وَأَحَاطَتْ بِهَا. قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ حَتَّى يَمُوتَ الْقَلْبُ. اهـ

وقال الطبري: أي غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب فغطتها. اهـ

وروى الإمام الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ {كلا ۖ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كانُوا يَكْسِبُونَ}.

قال المحاسبي: الذنوب تورث الغفلة. فالذنوب تسبب أكنة وأغطية على القلب فتمنع وصول الخير إليه فيصير القلب

أسود لا يعرف الحق من الباطل ولا يعرف المعروف من المنكر وأشدها على القلب هي الفتن والخوض فيها والاستشراف لها.

فقد روى الإمام مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

قال النووي رحمه الله: تلصق بعرضه كما يلصق الحصير بجانب النائم. أشربها دخلت فيه دخولا تاما وحلت منه محل الشراب.

ومن أسباب قسوة القلوب الإعراض عن ذكر الله والإعراض عن الصلاة والإعراض عن القرآن الكريم والإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به فهذا لا أظلم منه قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا}[الكهف:57]

قال المفسر السعدي رحمه الله :"يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلما، ولا أكبر جرما، من عبد ذكر بآيات الله وبين له الحق من الباطل،

والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسى ما قدمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلما من المعرض الذي لم تأته آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالما، فإنه أخف ظلما من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه، حالة الشر مع علمه بها ، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها، فليس في إمكانه الفقه الذي يصل إلى القلب،

{ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } أي: صمما يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل"اه.

فإذا صار كذلك أورثه الله ذلا وضيقا وعيشة ضنكا كما أخبر الله في كتابه الكريم: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى }[طه:124]

قال المفسر ابن كثير رحمه الله: {فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} أَيْ: فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ، وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعّم ظَاهِرُه فَإِنّ قلبه فِي قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ وَشَكٍّ. اه.

فإن أطاع الله وذكر الله وقرأ القرآن لان قلبه وخشع واطمأن وهانت عليه مصائب الدنيا وهمومها, قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب}[الرعد:28]

قال ابن كثير: أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيرا. اهـ

وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال:2]

فمن أسباب صلاح القلوب قراءة القرآن وتدبر معانيه.

قال السعدي: ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان. اهـ

أما قراءة القرآن بغير تدبر فلا يحصل للقلب كبير فائدة قال تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد:24]

قال ابن القيم: التمس قلبك في ثلاثة مواضع عند قراءة القرآن

وعند الذكر وعند الخلوة فإن وجدته وإلا فاعلم أنه لا قلب لك فابحث لك عن قلب. أو قال كما قال رحمه الله.

فقراءة القرآن والذكر والاستغفار من أسباب انشراح القلوب وصلاحها والإعراض عنها من أسباب قساوتها وضيقها وفسادها فقد تغشى القلب الهموم والغموم والغفلة فيذكر الله فيذهب عنه ما يجد فقد روى الإمام مسلم عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» والغين هو ما يتغشى القلب كما ذكره النووي رحمه الله.

فداوم يا عبد الله على ذكر الله وقراءة القرآن واحرص على حضور حلق العلم والذكر فإن الانقطاع عنها من أسباب قسوة القلوب والمداومة عليها من أسباب صلاح القلوب كالغيث للأرض إذا نزل أنبتت وأثمرت وإذا تأخر عنها أو انقطع ماتت ويبست أشجارها, وما كان من أهل الكتاب إلا أن قست قلوبهم بسبب انقطاعهم عن ذكر الله فخيمت الغفلة على قلوبهم بعد أن طال عليهم الزمان وذلك لأنهم لم يداوموا على الكتاب الذي أنزل عليهم قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}[الحديد:16]

قال المفسر السعدي: {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ

فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ} أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، {فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله. اهـ

وقال ابن القيم: إن القلوب تصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤها بـ الذكر.

فتعاهد قلبك بالمواعظ فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعاهد أصحابه بالمواعظ ويتخللهم بها فلما مات كان ابن مسعود رضي الله عنه بفعل ذلك.

وقد شرعت خطبة الجمعة لهذا الشأن وأوجب الله حضورها,ومن المؤسف عند بعض الناس أنهم يتأخرون دائما أو غالبا عن خطبة الجمعة فلا يشهدون إلا الصلاة فقط فهذا من الغفلة ,وهذا الصنف يخشى على قلوبهم من القساوة وهم آثمون لتركهم واجب, فإن الله سبحانه وتعالى أمر بالحضور عند النداء لسماع الخطبة فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[الجمعة:9] وقد عاتب الله الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك وهم أهل الذكر وأهل القرآن وأهل الإيمان وأهل العلم والتعليم ,فقد روى مسلم عن

ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: " مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد: 16] إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ " هذا ولم يكن بين إسلامهم وبين هذا العتاب إلا زمن يسير.

وعاتب الذين خرجوا أثناء الخطبة فقال:" وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" [الجمعة : 11]

فكيف بالذي يعرض عن الذكر وعن العلم وعن سائر المواعظ أكثر عمره! بل بعضهم ربما ما حضر حلقة من حلق الذكر والعلم ولا تعلم مسألة من مسائل الدين ولا تعلم كيف يصلي ولا كيف يصوم فهؤلاء هم أصحاب القلوب القاسية.

ومن أسباب قساوة القلوب وزيغها الجدال والعناد بالباطل فإن بني إسرائيل لما أكثروا الجدال والتعنت قست قلوبهم فزاغوا وانحرفوا قال تعالى: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً }[البقرة:74]

قال المفسر السعدي: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ} أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة، {مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم، لأن ما شاهدتم، مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها {كَالْحِجَارَةِ} التي هي أشد قسوة من

الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار، ذاب بخلاف ا لأحجار. ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: {وَإِنّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجّرُ مِنْهُ الأنْهَارُ وَإِنّ مِنْهَا لَمَا يَشّقّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ}. اهـ

ومن ذلك الجدال بالباطل تعنتا فقد روى الترمذي عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ -: "مَا ضَلّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلّا أُوتُوا الْجَدَلَ"

قال المناوي: أي ما ضل قوم مهديون كائنين على حال من الأ حوال إلا أوتوا الجدل يعني من ترك سبيل الهدى وركب سنن الضلالة والمراد لم يمش حاله إلا بالجدل أي الخصومة بالباطل وقال القاضي: المراد التعصب لترويج المذاهب الكاسدة و العقائد الزائفة لا المناظرة لإظهار الحق. اهـ

ومن أسباب قسوة القلوب وزيغها عدم الانقياد للحق وقبوله وا لإذعان له من أول مجيئه, فإن من لم يقبل الحق من أول ما يأتيه أزاغ الله قلبه. قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوّلَ مَرّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[الأ نعام:110]

وقال تعالى: { فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[الصف:5]

قال المفسر ابن كثير: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء. اهـ

وقال السعدي: أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم. اهـ

وهكذا الحكم عام, فكل من لم يستجب لله ورسوله أو يأخذ بـ السنة من أول ما بلغته,فإنه يخشى عليه ألا يوفق لها وربما يحال بينه وبين الحق كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[الأنفال:24] فإذا حيل بينه وبين الحق عمي قلبه وإذا عمي قلبه عميت جوارحه فلا تهتدي بنور الإيمان والسنة بل يتخبط في ظلمات الجهل و البدع والمعاصي قال تعالى: { فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور}[الحج:46]

قال السعدي :وقوله: { إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف

قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاءاه.

فعلى العبد أن يقبل على الله يقلبه وقالبه ويتضرع بين يديه وأن يدعوه أن يثبت قلبه ويلهمه رشده وأن يوفقه لأسباب صلا ح القلوب وأن يصرفه عن أسباب فسادها فقد كان من دعاء النبي صلى ا لله عليه وسلم: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يا مقلب القلوب صرف قلبي على طاعتك" وكان أكثر أيمانه إذا حلف:" لا ومصرف القلوب" رواه البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

والله سبحانه وتعالى قد أرشدنا إلى هذا الدعاء {رَبّنَا لا ۔ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً إِتكَ أَنتَ الْوَهّاب}[آل عمران:8]

قال المفسر ابن كثير: أَيْ: لَا تُمِلْهَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَقَمْتَهَا عَلَيْهِ {وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ} أَيْ: مِنْ عِنْدِكَ {رَحْمَةً} تُثَبِّتُ بِهَا قُلُوبَنَا، وَتَجْمَعُ بِهَا شَمْلَنَا، وَتَزِيدُنَا بِهَا إِيمَانًا وَإِيقَانًا. اه.

وروى ا لترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت:كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:" يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ِ مَا أَكْثَرَ دُعَاءَكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: يَا أُمّ سَلَمَةَ إِتهُ لَيْسَ آدَمِيٌ إِلا ّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله ِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ. فَتَلا ۔ مُعَاذٌ {رَبّنَا لا ۔ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}.

فإن توفرت أسباب الثبات عند العبد ومنها الدعاء بإخلاص وافتقار ثبت الله قلبه برحمته وإن وجدت عنده أساب الزيغ أزاغ قلبه بعدله قال تعالى : {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تضَرّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيّنَ لَهُمُ الشّيْطَانُ مَا كانُواْ يَعْمَلُون}[الأنعام:43] أي هلا تمسكنوا ورقت قلوبهم وخشعت.

فيجب على العبد أن يسعى في أسباب صلاح قلبه,وأن يتضرع بين يدي الله ويدعوه ويخشع قلبه بذكر الله من أجل أن يثبته الله.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ويا مصرف القلوب صرفها على طاعتك.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إمام ا لأولين والآخرين وسيد المرسلين وقائد الغر المحجلين وخير خلق الله أجمعين. أما بعد:

فقد ذكرنا بعض أسباب قساوة القلوب وفسادها وبعض أسباب صلاحها ونذكر الآن بعض أمراض القلوب التي نتجت عن تلك ا لأسباب المفسدة لها ونذكرها لنحذرها ولئلا نقع في شيء منها كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه :: فمن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

فمن هذه الأمراض:

مرض العجب: وهو أن يعجب العبد بنفسه وبعمله ويرى نفسه زكية وأعماله صالحة وذنوبه مغفورة وأنه أفضل من غيره وأن أعماله مقبولة فهذا المرض محبط للأعمال, فقد روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم - يقول: "كانَ رَجُلان في بني إسرائيلَ مُتواخيَين، فكان أحدُهما يُذنبُ والآخرُ مجتهدٌ في العبادة، فكان لا يزالُ المجتهدُ يرى الأخرَ على الذنب، فيقول: أقصِرْ، فوَجَدَه يوماً

على ذنبٍ، فقال له: أقصِرْ، فقال: خلِّني وربِّي، أبُعِثتَ عليّ رقيباً ؟ فقال: واللّه ِ لا يَغفِرُ اللّه ُ لكَ -أو لا يُدْخِلُكَ اللّه ُ الجنةَ- فقبَضَ اللّه أرواحَهُما، فاجتمعَا عند ربِّ العالمين، فقال لهذا المجتهد: "أكُنتَ بي عالماً؟ أو كنتَ على ما في يدي قادِراً؟" وقال للمُذنِب: "اذهَبْ فادخُلِ الجنةَ برحمتي"، وقال للآخر: "اذهبُوا به إلى النار" قال أبو هريرة: والذي نفسِي بيدِه لتكلّمَ بكلمةٍ أوبَقَت دُنياه وآخِرَته.

وفي صحيح مسلم عن جُنْدَبٍ رضي اللّه عنه، أنّ رَسُولَ اللّه ِ صَلّى اللّه ُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، حَدّثَ " أَنّ رَجُلًا قَالَ: وَاللّه ِ لَا يَغْفِرُ اللّه ُ لِفُلَانٍ، وَإِنّ اللّه َ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الّذِي يَتَأَلّى عَلَيّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ".

فهذا رجل أعجب بعمله وحقر عمل غيره وحجر رحمة اللّه عليه وقال على اللّه بغير علم فأحبط اللّه عمله وأدخله النار ووفق الآخر للتوبة وغفر له.

فاحذر يا مسلم من العجب والقول على اللّه بغير فلا تحجر رحمة اللّه على أحد ولا تشهد لأحد بجنة ولا بنار إلا ما شهد اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم فإنه لا يعلم ما في القلوب إلا اللّه ولا يعلم بالخواتيم إلا اللّه ولا يعلم بأهل البر والتقى إلا اللّه ولا تركن إلى عملك فإنه قد يُرد عليك ولا يقبل, ولكن عليك بالإخلاص والدعاء بحسن الخاتمة وأن يتقبل منك ,فإبراهيم عليه السلام يبني بيت اللّه الحرام ويقول : { رَبّنَا تَقَبّلْ مِنّا إِنّكَ أَنتَ

السّمِيعُ الْعَلِيم}[البقرة:127] فمن نحن بجانب إبراهيم عليه السلام

ومن أمراض القلوب مرض الرياءوالشهرة: وهو أن يعمل العبد العمل الصالح شهرة ورياءرجاء مدح الناس ولا يخلص فيه لله وهذا أيضا مردود على صاحبه فقد روى مسلم من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ".

وروى الإمام أحمد عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ " قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً "

ومن أمراض القلوب مرض الهوى :وهو أن يتعبد العبد لله بهواه فيأخذ ما وافق هواه ويبتدع في الدين أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ويصرف النصوص عن ظاهرها ويتبع المتشابه ولا يعمل بالسنة بل ويحذر منها فهذا في الحقيقة يعبد هواه كما أخبر الله في كتابه وسمى الهوى إلهًا فقال سبحانه: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا

تذَكَّرُون}[الجاثية:23] فهذا هو حقيقة الزيغ والانحراف كما قال تعالى: { فَأَمّا الّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تأْوِيلِهِ }[آل عمران:7]

الذين يتتبعون المتشابه من النصوص أي: غير الواضح لجميع الناس فيلبسون به على العوام.

قال المفسر السعدي: أي الذي يلتبس على كثير من الأذهان غير المراد منها أو تشكل على بعض الناس فالواجب ردها إلى المحكم الواضح الذي ليس فيه شبهة ولا إشكال . اهـ

وقال ابن كثير: يأخذون بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة إضلالا لأتباعهم وإيهاما لهم إنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن. اهـ

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآيات فقال:" إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم". رواه البخاري ومسلم.

وهناك أمراض أخرى لا يسع المقام لذكرها كمرض النفاق والشك والكبر وغير ذلك من أمراض الشبهات وهناك أمراض الشهوات ک الزنا والحسد ومحبة الفواحش والمعاصي, والمعافى من عافاه الله من هذين المرضين مرض الشهوات والشبهات ,وبسبب الذنوب والانحرافات والمعاصي تزيد أمراض القلوب كما قال تعالى عن المنافقين: {فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم

عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُون}[البقرة:10] فجازاهم الله بسبب معاصيهم السابقة بأمراض لاحقة لأن المعصية تجر إلى أختها وجزاء الحسنة حسنة مثلها قال تعالى:[قُلْ مَنْ كانَ فِي الضّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرّحْمَنُ مَدًّا حَتّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمّا الْعَذَابَ وَإِمّا السّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللّهُ الّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا] [مريم : 75 ، 76]

نسأل الله أن يطهر قلوبنا من الزيغ والانحراف ومن الشرك و النفاق والرياء ومن سائر الأمراض اللّهم إنا نسألك قلوبا سليما وألسنة صادقة وأعمالا خالصة مقبولة برحمتك يا أرحم الراحمين.